الفصل الأول

ذكر بعض الآيات الدالة على سنة المدافعة وسنة الصراع بين الحق والباطل

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مسليه بذلك عما لقي من كفرة قومه في ذات الله، وحاثًّا له على الصبر على ما نال فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام:١١٢]، يقول: وكما ابتليناك، يا محمد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطينَ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول؛ ليصدوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك والإيمان بك وبما جئتهم به من عند ربّك، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسل، بأن جعلنا لهم أعداءً من قومهم يؤذُونهم بالجدال والخصومات.

يقول: فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به من بينهم وحدك، بل قد عممتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي على منع من آذاهم

مـن إيذائهـم، فلم أفعـل ذلك إلا لأعـرف أولي العزم منهـم من غيرهم. يقـول: فاصـبر أنتَ كما صبرَ أولـو العزم من الرسـل)[1]. وفي تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: ولو شـئتُ يا محمد، أن يؤمن الذين كانوا لأنبيائي أعـداءً مـن شـياطين الإنس والجن فـلا ينالهـم مكرهم ويأمنـوا غوائلهم وأذاهـم، فعلـتُ ذلـك، ولكنـي لم أشـأ ذلـك، لأبتـلي بعضهـم ببعض، فيسـتحق كل فريق منهم ما سبق له في الكتاب السابق ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يقول: فدعهـم، يعني الشـياطين الذيـن يجادلونك بالباطل مـن مشركي قومك، ويخاصمونـك بـما يوحـي إليهـم أولياؤهم من شـياطين الإنـس والجن: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: وما يختلقون من إفك وزور، يقول له ﷺ: اصبر عليهم فإني من وراء عقابهم على افترائهم على الله واختلاقهم عليه الكذب والزور[2].

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية أيضاً:

«يقـول تعـالى: وكلـما جعلنـا لـك -يـا محمـد- أعـداء يخالفونـك، ويعادونـك جعلنـا لكل نبي مـن قبلك أيضاً أعداء فـلا يَهِيبنَّك ذلك، كما قـال تعـالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمـران:١٨٤]، وقـال تعـالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعـام:٣٤]، وقال تعـالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن

(١) «تفسير الطبري» بتحقيق أحمد شاكر (١٢/ ٥٠، ٥١).
(٢) نفس المصدر (١٢/ ٥٧).

قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١].

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «**إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي**»(١).

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء)(٢).

ويعلق الحافظ ابن حجر رحمه الله على قول ورقة بن نوفل: (إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي) فيقول:

«واستبعد النبي ﷺ أن يُخْرِجُوهُ؛ لأنّهُ لَمْ يكنْ فِيهِ سَبَب يَقْتَضِي الإِخْراج، لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِم الأَخْلاَق التي تَقدَّمَ مِنْ خَديجة وَصْفَها. وقَدْ استدَلَّ ابن الدُّغُنَّة بمِثلِ تلكَ الأَوْصاف على أنَّ أبَا بكر لا يُخْرَج.

قوله: (إلاّ عُوديَ)، وفي رواية يُونُس في التّفسير: «إلاَّ أُوذِيَ» فذكرَ ورقة أنَّ العلّة في ذلكَ مجيئُهُ لهمْ بالانتقالِ عَنْ مأْلُوفهم؛ ولأنّه علمَ من الكُتُب أنّهم لا يُجِيبُونَهُ إلى ذلكَ، وأنّهُ يلزَمهُ لذلكَ مُنابَذتهم ومُعاندتهمْ فتَنشأ العَداوةُ مِنْ ثَمَّ»(٣).

---

(١) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ط دار طيبة، تحقيق سامي السلامة.

(٣) «فتح الباري» (١/ ٢٦).

ويقول الشيخ السعدي في تفسير الآية: (يقول الله -مسلياً لرسوله محمد ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقاً

قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً ردوها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداءً، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه. فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون)[1].

ويقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية:

(والمشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن من ناحية، وكل نبي وأتباعه من ناحية أخرى؛ ومشيئة الله المهيمنة وقدره النافذ من ناحية ثالثة.. هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفة قصيرة:

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون.. شياطين الإنس والجن.. تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة.. هي عداء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه.. خطة مقررة فيها وسائلها.. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

(١) «تفسير السعدي» (١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

﴿بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.. يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية؛ وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضاً! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله.. إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم؛ ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً. ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلاً!

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً.. إنه محاط به بمشيئة الله وقدره.. لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه بقدره. ومن هنا يبدو هذا الكيد -على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه- مقيداً مغلولاً! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط. ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع، كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر، ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم.. كلا! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله. وقدرتهم محدودة بقدر الله. وما يضرون أولياء الله بشيء إلا ما أراده الله -في حدود الابتلاء- ومرد الأمر كله إلى الله.

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق؛ ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها.. ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ، وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود، وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريده أو لا يريده الشياطين! وأن يمضوا في طريقهم يبنون الحق في واقع الخلق، بعد بنائه في قلوبهم هم

وفي حياتهم. أما عداوة الشياطين، وكيد الشياطين، فليدعوهما للمشيئة المحيطة والقدر النافذ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1].

ويقول في موطن آخر مجيباً على من يسأل عن حكمته سبحانه في تسليط أعدائه على أوليائه، ولماذا لم ينتشر هذا الدين إلا بجهد البشر، ولو شاء الله لأهلك أعداءه وأعداء أوليائه دون هذا كله.

يقول رحمه الله: (وليس لأحد من خلقه أن يسأله: لماذا شاء هذا؟ ما دام أن أحداً من خلقه ليس إلهاً! وليس لديه العلم ولا إمكان العلم بالنظام الكلي للكون وبمقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود وبالحكمة المغيبة وراء خلق كل كائن بهذا »التصميم« الخاص!

ولكن قد يسأل ذلك جاهل بحقيقة الألوهية.. فالسبيل لإجابة هذا الجاهل ليس هو الجواب المباشر. إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية حتى يعرفها فهو مؤمن أو ينكرها فهو ملحد.. وبهذا ينتهي الجدل إلا أن يكون مراء!

ليس لأحد من خلق الله إذن أن يسأله -سبحانه- لماذا شاء أن يخلق الكائن الإنساني بهذه الفطرة؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة لا تمحى ولا تعدل ولا تعطل؟ ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي يتحقق في حياته عن طريق الجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية[2]؟

---

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٢٨).

(٢) لا يعني كلام سيد قطب رحمه الله نفي الحكمة في أفعال الله عز وجل، فهو يثبتها في مواطن كثيرة، وأما نفاة الحكمة والتعليل؛ فهم الأشاعرة ومن تبعهم الذين يقولون بمجرد المشيئة المحضة.

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة؛ ويراها وهي تعمل في واقع البشرية، ويفسر التاريخ البشري على ضوئها؛ فيفقه خط سير التاريخ من ناحية، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى.

هذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام -كما جاء به محمد- ﷺ لا يتحقق في الأرض في دنيا الناس بمجرد تنزله من عند الله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه، ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يُمضي الله ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب، وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية)[1].

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ...﴾ الآية [محمد:٤].

يقول الإمام الطبري رحمه الله عند هذه الآية: (.. ولو يشاء ربكم ويريد لانتصر من هؤلاء المشركين، الذين بين هذا الحكم فيهم بعقوبة منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذكره كره الانتصار منهم، وعقوبتهم عاجلاً إلا بأيديكم أيها المؤمنون ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ يقول: ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم، حتى ينيب إلى الحق)[2].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٥٨).

ويقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية:

(إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وأمثالهم في الأرض كلها في كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين، الذين يظهرون في ثوب البطش والاستكبار، ويتراءون لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء، إن هؤلاء جميعاً حفنة من الخلق، تعيش على ظهر هذا الكوكب الصغير المسمى بالأرض.

فلا يبلغ هؤلاء ومن ورائهم من الأتباع، بل لا يبلغ أهل الأرض كلها، إن يكونوا نملاً صغيرة. لا بل إنهم لا يبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسمات. لا بل إنهم لا يبلغون شيئاً أصلاً حين يقفون أمام قوة الله.

إنما يتخذ الله المؤمنين -حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم- إنما يتخذهم سبحانه سببًا من الأسباب الظاهرة. ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة. كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم. بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير. وهو يبتليهم، ويربيهم، ويصلحهم، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار.

يريد ليبتليهم، وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات. فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به، حتى تجاهد في سبيله، فتَقْتُل وتُقْتَل، ولا تسلم في هذا الحق الذي تعيش له وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله.

ويريد ليربيهم، فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية، مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه. ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف، ويكمل كل نقص، وينفي كل زغل ودخل، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتطلع إلى وجه الله ورضاه، فترجح هذه وتشيل تلك، ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارت، وأنها تربت فعرفت، وأنها لا تندفع بلا وعي، ولكنها تقدر وتختار.

ويريد ليصلحهم، ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتعرض للموت في كل جولة، ما يعود النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه. وهو هين هين عند من يعتاد ملاقاته، سواء سلم منه أو لاقاه، والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس لحظات الخطر شيئاً يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح.

ثم هي الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها عن طريق قيادتها بأيدي المجاهدين الذين فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها؛ وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سبيل الله. ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله والتطلع إلى رضاه.. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلها ويصلح العباد. ويصبح عزيزاً على هذه الأيدي أن تسلم راية القيادة للكفر والضلال والفساد؛ وهي قد اشترتها بالدماء والأرواح وكل عزيز وغال أرخصته

لتتسلم هذه الراية لا لنفسها ولكن لله! ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة لمن أراد الله بهم الحسنى؛ لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب)[1].

ومما يدخل في معنى هذه الآية قوله سبحانه في الحديث القدسي الطويل ومنه: «**إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»[2] ويشرح الإمام النووي هذا الحديث فيقول:

(معناهُ: لأَمتحِنك بما يظهر منك من قِيامك بما أمرتُك به من تَبليغ الرّسالة وغير ذلك من الجِهاد في الله حقّ جهاده، والصَّبر في الله تعالى وغير ذلكَ، وأبتلي بك مَن أرسلتُك إليهم، فمنهم من يُظهر إيمانه، ويُخلص في طاعاته، ومن يتخلّف، ويتأبّد بالعداوةِ والكُفر، ومن يُنافق. والمُراد أن يمتحنهُ ليصيرَ ذلك واقعاً بارزاً، فإنّ الله تعالى إنما يُعاقب العباد على ما وقع منهم، لا على ما يعلمهُ قبل وقُوعه، وإلاَّ فهو سبحانه عالم بجميع الأشياء قبل وُقُوعها، وهذا نحو قوله: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ**﴾ [محمد:٣١] أي: نعلمهُم فاعلينَ ذلك مُتّصفين به)[3].

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ**﴾ [الفرقان:٣١].

يقول الإمام الطبري رحمه الله عند هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء من مشركي قومك، كذلك

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٤٤٠، ٤٤١).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).
(٣) «شرح مسلم للنووي» (٩/ ٢٤٧).

جعلنا لكل من نبأناه من قبلك عدوًّا من مشركي قومه، فلم تخصص بذلك من بينهم، يقول: فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا)[1].

ويقول السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل.

من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحاً عظيماً؛ لأن معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحاً وبياناً وكمال استدلال، وأن يتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك. ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا فاكتف به وتوكل عليه)[2].

ويقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية:

(ولله الحكمة البالغة، فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوي عودها؛ ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها، وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق، هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى

---

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٦٥).
(٢) «تفسير السعدي» (١/ ٥٨٢).

الزائفة؛ وهو الذي يمحص القائمين عليها، ويطرد الزائفين منهم؛ فلا يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة، التي لا تبتغي مغانم قريبة، ولا تريد إلا الدعوة خالصة، تبتغي بها وجه الله تعالى.

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة، تسلك طرقاً ممهدة مفروشة بالأزهار، ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون، ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل، ووقعت البلية والفتنة. ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات، هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتماً مقضياً، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقوداً، فلا يكافح ويناضل، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع، وأعراض الحياة الدنيا، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها، ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عوداً، وأشدهم إيماناً، وأكثرهم تطلعاً إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس.. عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل. وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء، وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها، واجتازوا امتحانها وبلاءها، أولئك هم الأمناء عليها، الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته. وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالي، وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين، وقد علمتهم التجارب والابتلاءات، كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور، وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم، فنما

رصيدهم من القوة وذخيرتهم من المعرفة، فيكون هذا كله رصيداً للدعوة التي يحملون رايتها على السراء والضراء..

وبروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي، فدعوة الحق إنما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشرية، فساد في القلوب، وفساد في النظم، وفساد في الأوضاع، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون، الذي ينشئون الفساد من ناحية، ويستغلونه من ناحية، والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد، وتتنفس شهواتهم في جوه الوبيء، والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها.. فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعاً عن وجودهم، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه. وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة، ولا يستطيع الحياة إلا في المقاذر، وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري، ولا يستطيع الحياة إلا في المستنقع الآسن.

وكذلك المجرمون.. فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق، يستميتون في كفاحها. وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية، لأنها تسير مع خط الحياة، وتتجه إلى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله، والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراد الله.. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾)[1].

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ...﴾ الآية [الحج:٤٠].

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢١٥، ٢١٦).

يقول السعدي رحمه الله عن هذه الآية: (فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لاستولى الكفار على المسلمين فخربوا معابدهم وفتنوهم عن دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي ومقصود لغيره. ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضائل المجاهدين وببركتهم دفع الله عنها الكافرين. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١])[1].

ويقول سيد قطب رحمه الله: (إن كل الأماكن التي يعبد فيها الله تعالى معرضة للهدم رغم قدسيتها ولا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها -كما جاء في سورة الحج- ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرماتها ويتعدون على أهلها.

فالباطل قبيح لا يكف ولا يقف عن العدوان، إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول، ولا يكفي الحق أنه الحق ليوقف عدوان الباطل، بل لابد من قوة تحميه وتدفع عنه، وهي سنة ثابتة وقاعدة كلية لا تتبدل مادام الإنسان هو الإنسان)[2].

والمدافعة بالقتال يمثل الصورة الأخيرة للتدافع التي تأتي بعد سلسلة من المدافعات، إذ يحتمل التدافع عدة معان وصورًا متعددة، فالدعوة

(١) «تفسير السعدي» (١/ ٥٣٩).
(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٤٢٥).

والحوار مع أهل الباطل مدافعة، والبيان وإقامة الحجة والإغلاظ في القول مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعة، والصراع مع الباطل وأهله في ساحات القتال مدافعة، وكل هذه الصور مشروعة، وسنة التدافع مترتبة على سنة الإعداد بكل أنواع القوة لمصارعة الباطل وأهله.

الآية الخامسة:

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣].

يقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية: (إنها سنة جارية أن ينتدب في كل قرية -وهي المدينة الكبيرة والعاصمة- نفر من أكابر المجرمين فيها، يقفون موقف العداء من دين الله، ذلك أن دين الله يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السلطان الذي يستطيلون به على الناس، ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس، ومن الحاكمية التي يستذلون بها الرقاب، ويرد هذا كله إلى الله وحده.. رب الناس.. ملك الناس.. إله الناس.

إنها سنة من أصل الفطرة.. أن يرسل الله رسله بالحق.. بهذا الحق الذي يجرد مدعي الألوهية من الألوهية والربوبية والحاكمية. فيجهر هؤلاء بالعداوة لدين الله ورسل الله. ثم يمكرون مكرهم في القرى، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى، وفي نشر الباطل والضلال، واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي.

إنها سنة جارية، ومعركة محتومة، لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين القاعدة الأولى في دين الله -وهي رد الحاكمية كلها لله- وبين أطماع المجرمين في القرى. بل بين وجودهم أصلاً.. معركة لا مفر للنبي أن يخوضها، فهو لا يملك أن يتقيها، ولا مفر للمؤمنين بالنبي أن يخوضوها وأن يمضوا إلى النهاية فيها.. والله سبحانه يطمئن أولياءه.. إن كيد أكابر المجرمين -مهما ضخم واستطال- لا يحيق إلا بهم في نهاية المطاف. إن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم فيها، وهو حسبهم، وهو يرد على الكائدين كيدهم: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فليطمئن المؤمنون)[1].

الآية السادسة:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٧-٥٨].

يقول الإمام الطبري رحمه الله عند هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد! لهؤلاء العادلين بربهم الآلهة والأوثان، المكذبيك فيما جئتهم به، السائليك أن تأتيهم بآية استعجالاً منهم بالعذاب: لو أنّ بيدي ما تستعجلون به من العذاب ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾،

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٠).

ففصل ذلك أسرع الفصل، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك، وتستعجلونه، ولكن ذلك بيد الله، الذي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين، الذين يضعون عبادتهم التي لا تنبغي أن تكون إلا لله في غير موضعها، فيعبدون من دونه الآلهة والأصنام، وهو أعلم بوقت الانتقام منهم، وحال القضاء بيني وبينهم)[1].

ويقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية:

(كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب، ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله.. وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول؛ وأن يفرق فرقاناً كاملاً بينها وبين حقيقة الألوهية؛ وأن يجهر بأنه لا يملك هذا الذي يستعجلونه؛ فالذي يملكه هو الله وحده؛ وهو ليس إلهاً، إنما هو رسول: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

إن إيقاع العذاب بهم بعد مجيء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء؛ ولله وحده الحكم والقضاء. فهو وحده الذي يقص الحق ويخبر به؛ وهو وحده الذي يفصل في الأمر بين الداعي إلى الحق والمكذبين به. وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه.

وبذلك يجرد الرسول ﷺ نفسه من أن تكون له قدرة، أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده، فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها، وهو بشر يوحى إليه، ليبلغ وينذر؛ لا لينزل قضاء ويفصل.

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٤٠٠).

وكما أن الله سبحانه هو الذي يقص الحق ويخبر به؛ فهو كذلك الذي يقضي في الأمر ويفصل فيه.. وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله -سبحانه- وخصائصه عن ذوات العبيد.

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله، ومتروك لمشيئة الله. فلو أن أمر الخوارق -بما فيها إنزال العذاب- في مقدوره -وهو بشر- ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم، وهم يلحفون هذا الإلحاف، ولكن لأن الأمر بيد الله وحده، فهو يحلم عليهم؛ فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر، إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إن للطاقة البشرية حدوداً في الصبر والحلم والإمهال. وما يحلم على البشر ويمهلهم -على عصيانهم وتمردهم وتبجحهم- إلا الله الحليم القوي العظيم..

وصدق الله العظيم.. فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق ما يضيق به الصدر، وتبلغ منه الروح الحلقوم.. ثم ينظر فيجد الله -سبحانه- يسعهم في ملكه، ويطعمهم، ويسقيهم، ويغدق أحياناً عليهم، ويفتح عليهم أبواب كل شيء.. وما يجد الإنسان إلا أن يقول قولة أبي بكر رضي الله عنه والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ، حتى ما يعرف له أنف من عين: «رب ما أحلمك! رب ما أحلمك!» فإنما هو حلم الله وحده.. وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو

يمهلهم عن علم، ويملي لهم عن حكمة، ويحلم عليهم وهو القادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون، ثم ينزل بهم العذاب الأليم)[1]. ا.هـ.

وفي ختام هذه الآيات الكريمات وما ورد في تفسيرها من أقوال بعض أهل العلم يحسن بنا ذكر بعض الفوائد التي نخرج بها من هذه الآيات التي تقودنا إلى معرفة بعض الحكم الربانية في تقدير الصراع بين الحق والباطل وحتميته، ومن ذلك تسليط أعداء الله المجرمين على عباده المؤمنين في بعض الأزمنة أو الأمكنة.

الفائدة الأولى:

إن تقلب الكافرين في البلاد وما هم فيه من الغلبة الظاهرة على المسلمين إنما هو بقدر الله -عزّ وجل- ومقتضى حكمته البالغة، وليس من صنعهم ولا من عند أنفسهم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، فالنصر منه سبحانه وحده، ومتعلق بقدره وإرادته وحكمته، فالأمر كله لله وحده، وتدبير الأمور كلها بيده سبحانه، وأن شيئاً لا يكون في ملكه العلوي أو السفلي إلا بأمره وحكمته.

وبهذا الإيمان واليقين يستعلي المؤمن بإيمانه، ويستقر في قلبه أن الأمر كله لله، كي لا يشوب القلب ما يشوب ضعاف الإيمان من إساءة الظن بالله ﷻ وبوعده، وكي لا يتعلق بالأسباب والوسائل، وإنما يتعلق بمسببها وخالقها ومدبرها سبحانه، ويعتقد أن له سبحانه الحكمة البالغة في تدبير الأمور، ومنها إدالة الكافرين على المسلمين في بعض الأزمنة والأمكنة.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ٥٧).

وهنا تنبيه مهم لابد من ذكره ألا وهو: التأكيد على أن يقيننا بأن كل شيء يحدث في هذا الكون خلقاً أو أمراً إنما هو بقدر الله ﷻ وإرادته وحكمته. إن هذا لا يعني الاستكانة لتسلط الأعداء واحتلالهم للبلاد بحجة الرضا بقدر الله ﷻ كما يراه غلاة المتصوفة الجبرية، وإنما الواجب على المسلمين في هذه الأحوال مدافعة قدر الله ﷻ في تسليط الأعداء بقدره سبحانه بجهادهم ودفعهم عن ديار المسلمين، وقل مثل ذلك في دفع قدر المرض بالتداوي والحريق بإطفائه، وكل مصيبة يمكن مدافعتها، وهذا ما أوضحه الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله:

(ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه -ولما يقع- بأسباب أخرى من القدر تقابله؛ فيمتنع وقوعه كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان، فهذا شأن العارفين، وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة؛ فإنه عجز، والله تعالى يلوم على العجز، فإذا غلب العبد، وضاقت به الحيل، ولم يبق مجال؛ فهنالك الاستسلام للقدر، والانطراح كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء)[1] ا.هـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٠).

الفائدة الثانية:

إن حتمية الصراع والمدافعة بين الحق والباطل سنة ربانية مطردة ثابتة، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون هذا الصراع والمدافعة بين أوليائه وأعدائه، ولو شاء الله -عز وجل- لانتشر دينه وعلا في الأرض دون جهد البشر، ولكن الله ﷻ لم يرد هذا، بل أراد خلافه بحكمته البالغة قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقد مر بنا قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢]، وأيضاً قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآية [البقرة:٢٥١].

الفائدة الثالثة:

إن من ثمرات العلم بالله ﷻ وبأسمائه الحسنى والإيمان بها ومقتضياتها وآثارها والتعبد له سبحانه بها أن يدرك العبد هذه المسلمات، ويسير في ضوئها وهداها، وينسجم معها ولا يصادمها، وأن ينطلق في تفسيره للحوادث والنوازل والموقف منها من هذا الفهم الصحيح لأسماء الله ﷻ وصفاته العلا، ومن العلم بالسنن الإلهية في الصراع والتغيير، وفي المقابل فإن الجهل بالله ﷻ وبأسمائه الحسنى وسننه المثلى هو مصدر التخبط والاضطراب والانحراف في التعامل مع الحوادث والمتغيرات، كما أنه مصدر الوساوس والشكوك في وعد الله ﷻ وسوء الظن به سبحانه.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (ولكن تُذكر هنا نكتة نافعة، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من مصائب، وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن العاقبة للتقوى، وقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] -وهو ممن يصدِّق بالقرآن- حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط، وقال: أما في الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين، ولهم العزة والنصرة، والقرآن لا يَرد بخلاف المحسوس، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق وأنا مغلوب، وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين، قال: هذا في الآخرة فقط.

وإذا قيل له: كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور؟ قال: يفعل ما يشاء، وربما قال بقلبه أو لسانه، أو كان حاله يقتضي أن هذا من نوع الظلم، وربما ذكر قول بعضهم: ما على الخلق أضر من الخالق، لكن يقول: يفعل الله ما يشاء. وإذا ذُكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء، فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد، بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء.

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين:

إحداهما: حسن ظنه بدين نفسه نوعاً أو شخصاً، واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه، وتارك ما نُهي عنه في الدين الحق، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك: أن دينه باطل نوعاً أو شخصاً، لأنه ترك المأمور وفعل المحظور.

والمقدمة الثانية: أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره. وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذا البلية مبناهما على الجهل بأمر الله ونهيه، وبوعده ووعيده. فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور، وتارك للمحظور، وهو على عكس ذلك، وهذا يكون من جهله بالدين الحق.

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين، ولأهل الفجور على أهل البر، فهذا من جهله بوعد الله تعالى.

أما الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر ما يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل.

وحبك الشيء يعمي ويصم، والإنسان مجبول على محبة نفسه، فهو لا يرى إلا محاسنها، ومبغض لخصمه، فلا يرى إلا مساوئه، وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم، فإن الإنسان ظلوم جهول.

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وتقليدهم في التصديق والتكذيب، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١]..

وأما الثاني: فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى أو سبيل آخر، ويكذب بوعد الله بنصرهم.

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة:٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥-٥٦].

وقال تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩]...

وأخبر أن ما يحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها، إنما هو بذنوبهم، فقال تعالى في يوم أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الروم:٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى:٣٤].

وذم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٠-١٤].

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو **المقدمة الأولى**، وأمرهم بانتظار وعده، وهي **المقدمة الثانية**، وأمرهم بالاستغفار والصبر، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]..)[1].

(١) «جامع الرسائل» (ج٢) (قاعدة في المحبة) (ص٣٢٤ - ٣٣٩ باختصار).

الفائدة الرابعة:

إن تدبر الآيات الكريمات التي سبق ذكرها وما يماثلها في القرآن الكريم ليقودنا إلى التعرف على بعض الحكم الإلهية، من وجود الصراع بين الحق والباطل، وابتلاء عباد الله المؤمنين بعباده وأعدائه الكافرين، ومن هذه الحكم ما يلي:

أولاً: حكمة الابتلاء والتمحيص وتمييز الخبيث من الطيب التي لا تحصل إلا بصراع الحق مع الباطل، وقد مر بنا قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١-١٤٢]، وقال ﷻ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ...﴾ الآية [آل عمران:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

وقال الله ﷻ في الحديث القدسي: «**وَإِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»(١).

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله بعض الحكم والغايات التي كانت في وقعة غزوة أحد التي ابتلي فيها المؤمنون بلاءً عظيماً، فقال:

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

* **ومنها**: أن حكمة الله وسُـنّته في رسـله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مـرةً ويُدال عليهم أخرى، لكن تكـونُ لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخـل معهم المؤمنون وغيرهـم، ولم يتميّز الصادق من غـيره، ولو انتصر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمعَ لهم بين الأمرين، ليتميّز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصةً.

* **ومنها**: أن يتميّز المؤمن الصّادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لّـما أظهرهم الله عـلى أعدائهم يوم بدرٍ وطار لهـم الصيت، دخل معهم في الإسـلام ظاهـراً مـن ليس معهم فيـه باطنـاً، فاقتضت حكمـة الله ﷻ أن سـبّب لعباده محنةً ميّزت بـين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رءوسـهم في هـذه الغـزوة، وتكلمـوا بما كانـوا يكتمونـه، وظهرت مخبآتُهـم، وعاد تلويحُهم تصريحاً، وانقسمَ الناس إلى كافرٍ ومؤمنٍ ومنافقٍ انقساماً ظاهراً، وعـرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفـس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم، فاسـتعدوا لهم وتحرزوا منهم. قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمـران:١٧٩] أي: مـا كان الله ليذركـم على مـا أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميزَ أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميّزهم بالمحنـة يوم أحدٍ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ الذي يميزُ به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سـبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة..)[1].

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٧).

ويقول سيد قطب رحمه الله:

(وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية)[1].

وها هي الأحداث المعاصرة والنوازل المزلزلة في بلدان المسلمين في سوريا والعراق وأفغانستان وغيرها كم كشفت من المنافقين والرافضة الباطنيين وعملاء الكافرين، حيث تساقطت الأقنعة عن وجوه هؤلاء، وأظهرت هذه الابتلاءات نفاقهم وزندقتهم وخبث طويتهم وعداءهم للإسلام وأهله، وتمييز الخبيث من الطيب، وفي ذلك خير ومصلحة عظيمة لم تكن لتتحقق لولا هذه الابتلاءات والنوازل، وسبحان الله العليم الحكيم العزيز الرحيم!!

ثانياً: ما في ذلك من الخير الذي يسوقه الله ﷻ إلى أوليائه بالابتلاء في استخراج عبوديتهم، وظهور صدقها في السراء والضراء، وظهور من ينصره ورسله بالغيب، وهذا لا يكون إلا بتسليط أعدائه سبحانه على أوليائه، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله:

* (**ومنها**: استخراجُ عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضرّاء وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على

(١) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص٣٥٩).

الطاعـة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقاً، وليسـوا كمن يعبد الله على حرفٍ واحدٍ من السرّاء والنعمة والعافية)[1].

ويقول في موطن آخر:

(والمقصـود بالقصـد الأول إتمـام نعمتـه تعالى عـلى أوليائه ورسـله وخاصته، فاسـتعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة، وكان في تمكين أهل الكفر والفسـق والعصيان من ذلك إيصال إلى الكمال الـذي يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والإنـكار عليهم والموالاة فيه والمعـاداة فيـه، وبذل نفوسـهم وأموالهم وقواهم له، فإن تمـام العبودية لا يحصـل إلا بالمحبة الصادقة، وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسـة وقوة في مرضاة محبوبه والتقرب إليه، فإن بذل لـه روحه كان هذا أعـلى درجات المحبة، ومن المعلـوم أن من لوازم ذلك التـي لا يحصـل إلا بهـا أن يخلق ذواتـاً وأسـباباً وأعمالاً وأخلاقـاً وطبائع تقتـضي معـاداة مـن يحبه ويؤثـر مرضاته لهـا، وعنـد ذلك تتحقـق المحبة الصادقـة من غيرها، فكل أحد يحب الإحسـان والراحـة والدعة واللذة، ويحـب من يوصل إليـه ذلك ويحصله له، ولكن الشـأن في أمـر وراء هذا وهو محبته سبحانه، ومحبة ما يحبه مما هو أكره شيء إلى النفوس وأشق شيء عليها مما لا يلائمها، فعند حصول أسـباب ذلـك يتبين من يحب الله لذاته ويحـب ما يحب ممن يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والمنكح والرياسـة، فإن أعطي منها رضي، وإن منعها سخط وعتب على ربه وربما

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٨).

شكاه وربما ترك عبادته، فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له، ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ومضرته، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم عنده لأجله في مرضاته، ولا يتحيز إليهم وهو يرى محاب نفسه وملاذها بأيديهم فيرضى مفارقتهم ومشاققتهم، وإيثار موالاة الحق عليهم، فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار، وأيضاً فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس، ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله، وإيثاراً لمرضاته وطلباً للزلفى لديه والقرب منه، وأيضاً فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الإنسانية إنسانية بل كانت ملكية)[1].

ثالثاً: تعريف عباده سوء عاقبة الذنوب والمعاصي والركون إلى الحياة الدنيا والاغترار بها، ونسيان الآخرة وما فيها، وهذه من رحمة الله ﷻ وحكمته، حيث يكون الابتلاء وتسليط الكافرين على المؤمنين تمحيصاً لهم وسبباً في رجوعهم إلى الله ﷻ ومعرفتهم لعيوبهم وذنوبهم فيقلعوا عنها ويتوبوا إلى الله ﷻ وينكسروا له ويرجعوا إليه ويغيروا ما بأنفسهم، ويشهد على ذلك ما حصل للمسلمين في العراق وسوريا وأفغانستان والبوسنة من الرجوع إلى دين الله ﷻ بسبب ما حل بهم من المصائب وغزو الكفار لهم. قال الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص٢٠٢، ٢٠٣).

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في حديثه عن حكمة الابتلاء الذي حصل للمسلمين في غزوة أحد:

* (**فمنها**: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشدّ حذراً ويقظةً وتحرزاً من أسباب الخذلان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠])[1].

ويقول في موطن آخر: (فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هو بذنوبه: إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه. وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١] والتحقيق: أنها انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم)[2].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٧).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٨٢).

رابعاً: إن في الصراع بين الحق والباطل بياناً للحق وإظهاراً لسبيل المجرمين.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: (ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان.. ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون)[1].

وهذا ما نشهده اليوم من اليقظة الشاملة في أوساط المسلمين بحقيقة أعدائهم، وتعرية باطلهم، وتقوية عقيدة الولاء والبراء، وشحذ الهمم لنصرة دين الله عز وجل والجهاد في سبيله، وفي هذا مكاسب كبيرة ومصلحة عظيمة، لاسيما إذا قارنا أحوال الأمة ويقظتها اليوم مما كانت تعيشه سابقاً قبل هذه الأحداث من غفلة وانخداع بما يروجه الكفار والمنافقون أنهم دعاة سلام وأمن وحرية.

خامساً: ما ذكره ابن القيم رحمه الله في كلامه عن الحكم المستوحاة من غزوة أحد في قوله:

* (**ومنها**: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً وأظفرهم بعدوّهم في كل موطنٍ، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبداً لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٧٠).

يكونـون فيها لو بسـط لهم الرزق، فـلا يُصلح عباده إلا الـسرّاء والضّرّاء والشّـدّة والرّخـاء والقبـض والبسـطُ، فهـو المدبـرُ لأمـر عباده كـما يليق بحكمته، إنه بهم خبيرٌ بصيرٌ)[1].

سادسـاً: اصطفاء الله ﷻ لمن يشـاء من عباده بالابتـلاء، ليكونوا من أوليائه، ويتخذ منهم شـهداء، ينعمون في جـواره برضاه وجنته، وما كان لهم أن يبلغوا ذلك إلا بالمحنة والبلاء. يقول ابن القيم رحمه الله:

* (**ومنهـا**: أنـه سـبحانه هيـأ لعباده المؤمنـين منـازل في دار كرامته لم تبلُغها أعمالهم ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيّض لهم الأسـباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها)[2].

سـابعاً: تخليـص النفوس مـن الزهو والعجـب والطغيـان، وتحقيق التوكل على الله وحده وانكسارها له.

يقول ابن القيم رحمه الله:

* (**ومنهـا**: أن النفـوس تكتسـب مـن العافيـة الدائمـة والنـصر والغنى طغيانـاً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سـيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٨).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٩٨).

* **ومنها**: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلّوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العزّ والنصر، فإن خلعة النصر إنّما تكون مع ولاية الذّل والانكسار. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة:٢٥]، فهو -سبحانه- إذا أراد أن يُعزّ عبده ويجبره وينصره كسره أولاً، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذلّه وانكساره)[١].

وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله: (وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها دون سند من الله لا تكفل النصر.. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها، ثم تكل الأمر بعدها إلى الله..)[٢].

ويقول أيضاً: (وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء.. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله.. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به)[٣].

ثامناً: ما ذكره ابن القيم رحمه الله في سرده للحكم المستوحاة من غزوة أحد بقوله:

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٩).
(٢) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص٣٥٩).
(٣) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص٣٥٩).

* (ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يُهلك أعداءه ويمحقهم قيّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحّص بذلك أولياؤُه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤١])[1].

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٠٠).